مكانة مصر فى كتاب توينبي

(دراسة للتاريخ)

هذا المقال خلاصة للتاريخ المصرى كما أفاد منه الأستاذ توينبى ، واجمال للنتائج التى خلص اليها فى دراسته له ، وقد روعى فيه ، على قدر الاستطاعة ، استعمال العبارات التى وردت فى معرض تفكيره وتدليله فى الأجزاء الستة التى تم نشرها من كتابه الضخم « دراسة للتاريخ » . ويشتمل التذييل على المراجع التى استند اليها فى هذه الدراسة الخاصة للتاريخ لمصرى ، وهى دراسة لاغنى عنها لنظريته بأسرها .

ان كتاب « دراسة للتاريخ » للأستاذ توينبى ، بأى المقاييس قسته ، هو مأثرة من مآثر هذا القرن العشرين . فهو لا يبارى ضخامة ، اذ تشتمل أجزاؤه الستة التى تم نشرها على أكثر من مليونى كلمة ، وهو اذن علامة على هذا العصر الذى يتعشق الضخامة لذاتها . ولكنه الى ذلك استجابة فعالة ، من عالم فرد ، يستجيب بها لهذه الحضارة المنحلة . فعلى النقيض من أولئك الذين لا يجدون فى التاريخ اتساقا ولا نظاما ولا وحدة ، ترى توينبى يؤكد أن للتاريخ هدفا روحيا ، وأن ادراكنا كفاح الانسان صعدا يضفى على التاريخ معنى ودلالة بدونهما يكون سجلا للمعارك الدامية ليس الا ، وهو ينكر قطعا ما ساد فى القرن التاسع عشر من بدع جعلت للدول والحضارات كيانا روحيا ، واعتبرتها أشياء لها ذاتية ، ويقيم فلسفته على هذا الرأى : وهو أن الحضارات انما تمثل الصلات القائمة بين ناس يعيشون فى مجتمع مافى وقت ما . وهو ينتقض كذلك على ما كان يدين به القرن التاسع عشر من عقيدة سهلة هينة ، وتلك هى أن التقدم أمر محتوم ، وأن التاريخ بجملته ليس الا تجهيزا

وتمهيدا للحاضر • وهو متفق مع الفلكيين على بيان تفاهة الانسان ، بل ربما تفاهة الحضارة الانسانية أيضا ، ولكنه يؤكد فى الوقت نفسه أن هذه التفاهة درجية لا نوعية •

ولقد فشت بين الناس عقيدة تذهب الى أن حضارة خاصة من بين الحضارات تعين بلوغ التاريخ الانسانى حد الكمال • تشبث بهذه العقيدة بناة الأهرام قديما كما يتشبث بها اليوم أعظم أقطاب الصناعة الحديثة فلاحا ، وواصل ترديدها دعاة الاحياء من ملوك الأسرة السادسة والعشرين ، وورثتها طائفة الكهنة المصريين التى ظلت طوال عهد الفرس والبطالمة والرومان تحافظ على سنة ثقافة مصرية كان قد عراها التحجر والجمود منذ أمد طويل ، وذلك على الرغم من اتصال هؤلاء الكهنة بشعوب أخر ، لو فاضل المنزهون من الأغراب بينها وبين مصر لآثروا على حضارة مصر حضارة هذه الشعوب • ويمكن أن يشبه كشف المجتمع المصرى حضارة البابليين والحثيين فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، أثناء هجمات المصريين المضادة على الهكسوس عبر صحراء سينا ، بكشف الصينيين حضارة الغرب منذ عهد قريب • وليس فى عرف توينبي شىء اسمه وحدة حضارة ، فما هذا الا وهم خلقته أنانية الشعوب • وانما الحضارات أنواع ، فلا حضارة فذة لا نظير لها ، ولا يحتمل أن تكون حضارة من الحضارات سائرة على خط الارتقاء الرئيسى •

ولم يك بد من أن يحارب المؤلف ، وهو يلفت النظر الى هذه الحقائق ، الآراء التى يدين بها دعاة « مذهب انتشار الحضارة » من علماء الأنثروبولوجيا البريطانيين • فهم يذهبون الى أن المصريين القدماء فى عصر بناة الأهرام هم « الشعب المختار » الذى تفرد بالمواهب والقدرة على الأبداع ، وأنهم هم الذين اخترعوا الحضارة التى طافت من ثم فى أرجاء الأرض ، فالحضارة المصرية اذن نسيج وحدها لأن مصر هى فى عرفهم البلد الأوحد ، على ظهر البسيطة ، الذى نبت فيه شىء اسمه

الحضارة ، مستقلا عن أية معونة خارجية ، وكل ما عداها من أنواع الحضارات مشتق منها •

وليس من العسير تفنيد هذه الدعوى (أولا) لقلة ما يؤيدها من أدلة ، خصوصاً اذا ذكرنا المجتمعات الصينية والمكسيكية والأندية . (ثانيا) لأنه من الجلى ، على ما يظهر ، أن تركيب مخ الانسان يتيح للعقول أن تصل الى نفس الأفكار والكشوف والنتائج فى وقت واحد فى أمكنة تبعد أميالا كثيرة عن بعضها البعض • يؤيد هذا الرأى أمثلة عديدة جادت بها الكشوف العلمية الحديثة ، فقد كشف الناس عدة مرات فى التاريخ مبدأ العقود والقباب ، والنظم السياسية تتكرر تكرارا متصلا مع تغيير طفيف ، أضف الى ذلك أن معظم الحضارات المستقلة من صنع أقوام مخلطى الأصول • وأنت تلحظ عناصر أجناس أربعة على الأقل فى الشعب المصرى ، أقدمها جميعا سكان البحر المتوسط الأولون ، اتحدت بهم عناصر زنجية من الجنوب ، ثم تدفقت عليهم أفواج جديدة من سكان البحر المتوسط أقبلت من الشمال الغربى ، وجموع من الألبيين الأرمن قدمت من الشمال الشرقى • ولا يسع المرء ، أمام هذا الاختلاط ، أن يسلم بأن ابتكار الحضارات وظيفة جنسية خاصة تفردت بها فروع معينة من الدوحة الانسانية ، ولو أنه من المسلم به أن الجنس الزنجى لم يساهم البتة بقسط غالب فى حضارة حية الى الآن •

وكتاب « دراسة للتاريخ » حافل بالصور الرائعة • فأنت ترى جبلا سحيقا قائم الانحدار يبدو من ثنايا الضباب وتتوارى خلف السحب قمته ، وعلى جوانب الجبل القائمة كثير من المتسلقين ، منهم من هوى فلقى حتفه وظل محطما لا حراك به ، ومنهم من تشبث بالجبل بأطراف أصابعه وقد تحرج موقفه لأنه أسرف تصعيدا ، وقليل منهم من ظل قائما يشق طريقه قدما وصعدا • على أن هذه الجروف التى تبدو للعيان لا تمثل من الزمن الا برهة وجيزة ، فهذه الستة آلاف سنة من الأضواء والأطياف

التى تمثل التاريخ المكتوب ، تقوم على ٣٠٠٫٠٠٠ سنة من الظلام .

ومن بين الأشباح القائمة على جوانب الجبل ستة وعشرون يتعرف عليهم المؤلف ، ويفاضل بينهم ، وعليهم يقيم نظرياته ، وهو عليم بأنه قد يكون هناك عدد أكثر من هذا العدد جدير بالتعرف عليه ، ولكن نتائج البحث التاريخى الذى يتولاه العلماء الغربيون تتوقف على ما لديهم من المصادر والمراجع ، كما يتحكم مقدار الخامات وتوزيعها فى حياة الانسان وتوجيه نشاطه . فالمعلومات الوافرة التى جادت بها برديات الصعيد الكثيرة تتيح لنا أن نؤلف سجلا يوميا للحياة فى عصر البطالمة . على أن هذا التلاقح بين حضارة الأغارقة والمصريين لم يكن مثمرا اذا قيس بما بلغته دولة أخرى من الدول الوريثة لدولة الاسكندر الأكبر ، وتلك هى دولة السلوقيين التى رسخت أقدامها فى آسيا ، والتى أزوجت أرضها حضارة الأغارقة بحضارة السوريين ، فقدمت الى العالم فكرة الملوكية الالهية كمبدأ يربط بين دول المدن (التى كانت النموذج الأول الذى على غراره أتت الدولة الرومانية) ، وكانت التربة التى عجلت بنضج الأربعة الأديان التوفيقية الكبرى ، وهى المثرية والمسيحية والمانكية والاسلام . ولكن ما معلوماتنا عن دولة السلوقيين ؟ ضئيلة جدا فى الحق ، وهذا القدر الضئيل ركبت أشتاته من الشواهد القليلة التى تشهد بها الآثار والنقود القديمة . وهكذا « أصبح الفخارى عبدا تتحكم فيه طينته » كما يقولون .

وهناك خمس حضارات يفرزها توينبى من بين الستة والعشرين التى يستطيع بصعوبة أن يراها على جوانب الجبل ، ومن بين الاحدى والعشرين التى أعقبت . وهذه الحضارات الخمس لا تزال تكافح وتناضل فى شىء من القوة ، ولو أن أربعا منها — وهى الحضارة المسيحية الأرثوذكسية (فى الروسيا والجنوب الشرقى لأوربا) والحضارة

الاسلامية والحضارة الهندية وحضارة الشرق الأقصى (فى الصين وكوريا واليابان) — تبدو عليها علامات الانحلال الوشيك ، أما الخامسة وهى الحضارة الغربية (فى أوربا الغربية والامبراطورية البريطانية والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية) فهى تتنفس فى جهد وعناء على الرغم من أنها بسبيل تحويل غيرها من الحضارات أو استغراقه • ويرى توينبى شبحا راقدا على جرف يعلو فوق الضباب ، شبح حضارة مجيدة فى تاريخها ، ممتازة بجلائل أعمالها ، طموحة فى أهدافهـا ، عمرت فى الأرض أكثر مما عمر غيرها من الحضارات ، ولها سجل للحوادث عظيم القيمة فى تدعيم نظريته • فقد استغرق التـاريخ المصرى أكثر من أربعة آلاف عام ، وعمرت هذه الحضارة — وهى الوحيدة الممثلة لنوعها — أطول من أية حضارة اتصل بها علمنا ، وهذا على الرغم من أنها على مايبدو احدى الحضارتين الوحيدتين اللتين لاتمتان الى غيرهما من الحضارات بسبب[1] • وتاريخها من الألف الرابع قبل الميلاد الى القرن الخامس الميلادى يمتد فترة تربو على أضعاف عمر الحضارة الغربية • ولا يمثلها فى العالم اليوم ورثة ولا قيمون ، وليست لها بقايا حفرية ولا جماعة انسانية تمت لها بقرابة أونسب ، « ولقد ظفرت أعظم الظفر فى الخلود الذى نشدته فوجدته فى الحجر » ، فمن المحتمل أن تعمر الأهرام التى سلخت فى الأرض أربعـة أو خمسة آلاف عام ، مائة ألف عام أخر ، بل قد تظل حية بعد أن يفنى النوع الانسانى كله « فتقوم حينئذ شاهدا على المجتمع المصرى الذى شادها ، فى عالم قد خلا من الحواس الانسانية التى تتلقى شهادتها ، ومن العقول البشرية التى تفهمها » •

ونظرية توينبى فى التاريخ نظرية منطقية ، فهو يجد فى عمليات «التحدى والاستجابة » مغزى يرتب عليه تفسير التاريخ • فالقوى الخارجيـة

---

(١) الحضارة الثانية هى الأندية •

تتحدى جماعات الناس ، فاذا حالفها النجاح فى الاستجابة انطوى هذا النجاح على ألوان جديدة من التحدى والاستجابة ، واذا باءت بالفشل أطلق تصدع الجماعة ، الذى يعقب الفشل ، عقال قوى مبدعة جديدة على مستوى أرفع من مستواها فى النضال السابق • وليس النجاح مرة دلالة مطمئنة على المستقبل ، فقد يصيب الجماعة أحيانا غلو فى الثقة بنفسها • وكل الحضارات التى عالجها المؤلف درسا عطبت أو ظهرت عليها بوادر العطب ، ونفس الأسباب التى حدت بتوينبي الى تناول هذا البحث اطلاقا قد حفظته من التورط فى ذلك الخيال الذى يتوهم أن الحضارة الغربية هى الغاية التى ينتهى عندها خط الارتقاء الرئيسى •

ويرى المؤلف فى كل حضارة أقلية مبدعة يمكن أن تعد على التقريب ، الطبقة الحاكمة • فاذا فقدت هذه الأقلية قدرتها على الابداع دخلت الدولة فى « فترة اضطرابات » يثيرها « المحرومون » من الداخل أو من الخارج ، وهو يستعمل كلمة « المحرومين » Proletariate بمعناها الأصلى هنا ، نعتا لأولئك الذين يعيشون فى جماعة ولكنهم ليسوا منها ، لا مصلحة لهم فى المجتمع ولا يساهمون فيه الا بأعقابهم • و « فترة الاضطرابات » يتلوها أو يتخللها مجهود للم الشعث تقيم به كل حضارة « دولة عامة » تكفل للناس استتباب الأمن والنظام مرة أخرى • وفى غالب الأحايين يكون الانهيار الذى يعقب ذلك انهيارا لارجعة فيه ، ولو أنه قد تقوم جهود صغيرة أشبه بصحوة الموت • والضربة القاضية يسددها شعب واحد يقيم بها نوعا من الدولة العامة • فقد أصبحت روما — بعد أن صرعت قرطاجنة ومقدونيا — الدولة العامة للحضارة الاغريقية • والدولة العامة المصرية تأسست سنة ٢٠٧٠/٦٠ ق•م على يد فرعون الأسرة الحادية عشرة ، الذى خلد عمله الجليل بتلقيبه نفسه « موحد الأرضين » ، وبعد العصر الذهبي الذى تمتعت به مصر تحت حكم الأسرة

الثانية عشرة انتهت الدولة الوسطى بفترة الفوضى التى انتصرت فيها البربرية بغزوة الهكسوس •

والدول العامة التى تبدو قوية هى احدى خدع التاريخ العظمى ، فهى فى أغلب الأحايين دليل على أن الحضارة فى طريق الاضمحلال ، وهذا الاضمحلال ترافقه على العموم ظاهرة أخرى هى ظهور كنيسة (أو ديانة) عالمية بين جماهير النـــاس • فالمسيحية كانت الديانة العالمية للحضـــارة الاغريقية ، والاسلام للحضارة السورية ، والبوذية للحضارة الصينية • وقد وجدت جماهير المحرومين المضطهدين فى المجتمع المصرى المتفكك ، اشباعا لما يضطرم فى صدورهم من موجدة ، ورجاء قويا ، فى عبـــادة أوزيريس ، فانصرف العامة عن آلهة مصر القومية ، تلك الآلهة العاتية القاسية ، التى سمحت للأقلية الحاكمة ، بقرابينها الفخمة التى بلغت الذروة فى الأهرام ، أن تشترى الرضا الالهى بثمن هو الاستغلال الصارم لجميع الناس خلا الصفوة المميزة ، واتجهوا صوب اله آخر ، عله ، وقد ذاق مرارة الموت ، أن يمنحهم الخلود بثمن أقل من الثمن الفادح الذى كان رع — الاله الشمس — يقتضيه الفراعنة لقاء منحهم هذا الخلود •

ويتصف سقوط الدولة العامة بـ « تصـدع فى جسم المجتـــمع » يعكس « تصدعا روحيا » غير ملحوظ ، ومن ثم نرى العـــلامات الخارجيـــة المنظورة للتصدع الروحى البـــاطن • وعلى الرغم من ظهور المنقذين وتوقف الانحلال برهة من الزمان ، فان القضـــاء لايرحم أحدا • وقد لا يحدث هذا دائما ، ذلك لأن القوى الفاصلة فى التاريخ ليست هى العوامل المادية ، بل النفسية والروحية • والمسرحية الحقيقية يجرى تمثيلها داخل عقل الانسان ، وتقررها الاستجابات لتحدى الحياة ، وما دامت المقدرة على الاستجابة تتفاوت تفاوتا هائلا ، اذن فلا حضارة مقضى عليها بالفناء قضاء مبرما •

ولقـــد فسر توينبى هذه النظرية بالأمثلة والمقـــارنات يستقيها من

الحضارات المعروفة التى تناولها بالدرس ، ولكن دراساته كلها تقوم على أساس من البحث والاستقصاء فى تاريخ مصر • فقد ولدت الحضارة المصرية — كما ولدت الحضارة السومرية — استجابة لتغير فى المناخ يظن أنه عرا أفريقا وآسيا بعد زوال العصر المطير (وهو ما يقابل العصر الثلجى فى أوربا) • ولما كانت الأحوال المناخية لاتستقر على حال ، فقد غاضت ميـاه النهر الذى كان يجرى صنوا لنهر السند ، واستحالت المراعى العشبية التى كانت تشرف على وادى النيل الأدنى الى صحراء هى الصحراء الليبية • فتغلغل الرواد الأجرياء فى مستنقعات وادى النيل وأدغاله التى لم تطأها قدم انسان من قبل ، كما تغلغل اخوانهم فى الوادى الأدنى للدجلة والفرات ، « تحدوهم الجرأة أو المغـامرة اليائسـة » واستطاعت جهود الانسان أن تتحكم فى خصوبة الطبيعة المسرفة • وكان الاقليم متوحشا خلوا من السكان أشبه الأشياء فى منظره باقليم السدود فى بحرى الجبل والزراف • وكان لزاما على أهل مصر أن ينتقلوا ، لأن موطنهم الذى كان غنيا بالمرعى الطيب كان يتحول الى صحراء جرداء ، ولكن محنة الانتقال هذه ، وهى محنة لم يسبق لها نظير فى هذا الاقليم ، كانت الزخم الذى قذف بالحضارة المصرية الى النور • وثمة « متحف حى » لأشكال المصريين القدماء ، تراه اليوم متحفرا فى قبائل الشلوك والدنكا الذين يعيشون على مقربة من بحر الجبل ، وهو متحف « غير حى » لمصر القديمة • وعظمة الاستجابة التى استجاب بها المصريون لصرامـة التحدى هى التى تضفى على التاريخ المصرى دلالته الحقيقية •

ولقد كانت هناك عوامل عديدة يحتمل أنها تضافرت على تحقيق النجاح • فلا بد أن جفاف الصحراء خفف من رطوبة وادى النهر وجعل الحياة فى البيئة الجديدة أيسر • ثم ان الأحوال فى اقليم المراعى لم تكن من الصرامة والشدة بحيث تخلق حضارة جديدة ، فلا بد اذن من الاستعانة هنا بالمبدأ القائل بأن « خير الأمور الوسط » • والاستجابة

هامة كمثل أهمية التحدى ، وقد أبدى المصريون القـدماء من الهمة ما فاق همة سكان وادى الأردن ، وهو صورة مصغرة من وادى النيل أو وادى الدجلة والفرات • ولم تثر وديان الأنهار الأمريكية الكثيرة المماثلة استجابة كهذه ، اذن فالبيئة ليست السبب الوحيد الذى تتولد عنه الحضارة • على أنه قد يكون مما عوض المصريين من صرامة التحدى أنهم ، وهم يغيرون من معـالم هذه المستنقعات التى تزخر بالأدغال ، لم يكن لزاما عليهم أن يشتغلوا بيد ويمسكوا السيف بالأخرى • كما كان لزاما على اليهود وهم يبنون أسوار أورشليم •

تطلب هذا الانتصار الذى أحرزته ارادة الانسان على الطبيعة ، فوق ماتطلب من شجاعة فردية متصلة ، تعاونا مستمرا ترك طابعه على التنظيم الداخلى لهذا المجتمع الناشىء وعلى تفاعل هذا المجتمع مع بيئته الخارجية • واستلزم التعاون تدريبا على الطاعة والنظام ، وقد تحقق هذا التدريب بثمن هو اخضاع ارادة عامة الشعب لارادة نفر قليل من القادة البارزين • وفى عهد الدولة القديمة كانت الفوارق بين الأقلية الحاكمة والأغلبية المحكومة أعظم بكثير مما كانت فى أى عهد من عهود الاقطاع فى أوربا • وتمتع ملك الأرضين وطبقة الحكام والفنانين والكهنة بسلطان عظيم على عقول الشعب وارادتهم ، لا يقل شأناعن سلطانهم على أرض مصر ونيلها • وقد استعمل ملوك الأسرتين الأولى والثانية سلطتهم عن جدارة ، ولكن بمجىء الأسرتين الثالثة والرابعة أتى على مصر العهد الذى فيـه « خلدت الأهرام هؤلاء الحكام المستبدين ، لا بوصفهم آلهة يعيشون سرمدا ، بل طغاة يطأون هام فقراء الشعب ، ولا تمحى ذكرى جورهم» • ولقد أتيح لجماهير الفلاحين فى النهاية أن تثأر لنفسها من خوفو وخفرع ، لأنهم أسلموا الى الأجيال المتعاقبة نبأ سمعتهما السيئة حتى وجد النبأ سبيله الى الأدب الاغريقى فى مؤلفات هيرودوت الخالدة ، وهو الذى كتب يقول « ان هذه الأهرام التى لا تفنى مازالت تقوم شاهدا على

احتمال الفلاحين الذين شيدوها ، وعلى جور الملوك الذين أمروا بتشييدها » •

كان بناء الأهرام نكبة على الحضارة المصرية تكاد تكون شاملة ، فقد تحطمت روح الشعب وغدا الفلاحون فعلة زراعيين تخيم عليهم الكآبة ، أما الأقلية التى بيدها مقاليد الأمور والتى كانت تحكم بالقهر والضغط فقد فقدت فن القيادة وفقدت معه قوة الابتكار والأصالة فى شتى فروع النشاط • وهكذا قبضت يد الموت البادرة على هذه الحضارة الناشئة ، فى الوقت الذى انتقل فيه تحديها من الميدان الخارجى الى الميدان الداخلى •

واذا كان التحدى الأول فى تاريخ مصر ، ذلك الذى أخرج الحضارة المصرية الى الوجود ، هو تحدى البيئة ، فان التحدى الثانى كان تحديا للحاكم المصرى ليثبت كيف يتصرف فى سلطانه الهائل على حياة اخوته من البشر الذين ألقى اليه زمامهم ، فيخلق من حياة الغابة مصرا متحضرة• ولكن قبول فراعنة مصر الموحدة مراتب الآلهة ، أو فرضهم على الناس هذا التأليه ، هو علامة دالة على هذا « الرفض الخطير » للدعوة التى دعتهم الى رسالة أسمى ، وهو المثل الأشهر على عبادة السيادة السياسية المتجسدة فى انسان • وأفضل رمز على هذا الكابوس الثقيل الذى فرضته على الحياة المصرية سلسلة من هؤلاء الآلهة البشر هو الأهرام التى سخر الشعب فى بنائها لينال مشيدوها عظمة الخلود والتقديس • ولقد كان أثر ذلك على الأذهان من الخطورة بحيث كادت تنعدم القدرة على الأبداع من بين صفوف الأقلية الحاكمة • وقد يقال ان هذه العبادة للملك ولدت سخطا ونفورا أدبيا ، ولكنه لم يكن كافيا لتغيير حال المجتمع • ولقد تناقلت الأجيال رواية مفادها أن الملك منقرع بانى الهرم الثالث بالجيزة انتهى به الأمر الى الندم • وأخيرا اتخذ الدين فى«فترة الاضطرابات » وجهة خلقية أسمى ، ولكن الاعتقاد فى امكان الخلود

للجميع على السواء ، واعتبار الملك خادما لشعبه ، لم يأتيا الا على عهد الدولة الحديثة ٠

ولو تأملنا تاريخ المجتمع المصرى لاتضح لنا أن أكثر من ربع المدة التى استغرقها بقليل — وهى أربعة آلاف عام — كان فترة نمو ٠ ومهما اختلفت المقاييس ، فان عهد الأسرتين الرابعة والخامسة هو الذروة التى بلغهـا التاريخ المصرى ٠ وبدأ الاضمحلال فى فترة الانتقال من الأسرة الخامسة الى السادسة (سنة ٢٤٢٤ ق٠م) ، وأعراض هـذا الاضمحلال هى الأعراض العامة فى نظر توينبى : قصور فى قدرة الأقلية على الابداع ، يصاحبه نقص فى قدرة الأكثرية على المحاكاة ، وما يستتبع ذلك من فقدان الوحدة الاجتماعية التى تنتظم الجماعة كلها ٠ وتفرقت « المملكة المتحدة » أشتاتا من الدويلات المحلية ، وافتقدت ذنوب بناة الأهرام فى خلفائهم ، فارتكست أحوال مصر الى مثلها قبل ألفى عام ، مع فوارق طفيفة ٠ وكانت تقوم على حدود مصر ثلاث جبهات فى وجه الهمجية : (١) الجبهة الشمالية الشرقية التى تواجه جنوب غربى آسيا عبر صحراء سينا التى هجمت منها حجافل الهكسوس فى سنة ١٦٨٠ ق٠م (٢) الجبهة الجنوبية فى أعلى النيل ، التى تواجه برابرة افريقيا الاستوائية (٣) الجبهة الشمالية الغربية التى تواجه شمال غربى أفريقيا عبر الصحراء الليبية ٠ وقد أنذر بحلول « فترة الاضطرابات » تشديد البرابرة النكير على الجبهة الأسيوية ، فقبل أن يغزو مصر الهكسوس ، الذين سيطروا على زمام الأمور فيها فترة وجيزة ، سبقتهم غارات شنها البرابرة الأسيويون حوالى منتصف الألف الثالث ق٠م ٠ وقد اقتضى ردهم على أعقابهم مجهودا حربيا فادحا جلب فى أعقابه انحلال الحضارة المصرية على عهـد بيبى الثانى (٢٣٧٦ — ٢٢٨٢ ق٠م ٠) وبذلك تضافرت جماهير المحرومين من خارج البلاد مع عوامل الانقسام فى داخلها على هدم حضارة فقدت قدرتها على الابداع ٠

واذا اعتبرنا سنة ٣٢٠٠ ق٠م٠ مبدأ لتأسيس مملكة مصر المتحدة فان « فترة الاضطرابات » امتدت من سنة ٢٤٢٤ الى سنة ٢٠٧٠/٦٠ ق٠م٠ وهو تاريخ تأسيس الدولة العامة الجديدة على يد ملوك الأسرتين الحادية والثانية عشرة الطيبيين ٠ والفضل فى هذين العملين العظيمين ، وهما تأسيس « المملكة المتحدة » و « الدولة العامة » يرجع الى رجال من بناة الدول أنبتهم اقليم الصـعيد ، اكتسبوا فى حربهم مع البرابرة جرأة وبسالة ٠ وكان اقليم الصعيد على أكبر جانب من الأهمية للعالم المصرى على الدوام ٠ وقد تدرب هذا القسم من الوادى الواقع الى الشمال مباشرة من الشلال الأول على فنون القتال ليقف سدا منيعا أمام تيار البرابرة النوبيين القادمين من أعالى النهر ، ثم انقلبوا وأقاموا بالقوة المسلحة المملكة المتحدة ذات التاجين ٠ ويصور لوح الملك نعرمر عودة هـذا المحارب الصنديد ظافرا بعد انتصاره على الوجه البحرى وأخذه من الغنيمة ١٢٠,٠٠٠ أسير و٤٠٠,٠٠٠ ثور و١,٤٢٢,٠٠٠ من الغنم والمعزى ٠ وهكذا تنهض هذه الحملة ذاتها ، التى خلقت من مصر بلدا موحدا ، شاهدا على هذه النزعة الوحشية فى نفسية ذلك المجتمع المصرى ، وهى النزعة التى عطلت نمو الحضارات المصرية ٠ فذرية هؤلاء الفلاحين من سكان الوجه البحرى الذين قتل نعرمر منهم من قتل ، وأسر من أسر هم أولئك التعساء الذين جعل منهم بناة الأهرام آلات بشرية مسخرة ٠

كان ملوك الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة الطيبيون أنبل محتدا من حكام الصعيد الأولين ٠ ومما يلاحظ أن مصر كان بها على الدوام استقطاب فى السلطة السياسية عند طرفيها ٠ ففى العصور الأولى رجح ميزان القوة ناحية الجنوب ، ولكنه ، ابتداء من القرن الرابع عشر ق٠م ، تحول الى الشمال حيث زادت دوافع الضغط من شمال غربى أفريقيا وجنوب شرقى آسيا زيادة كبيرة عن نظائرها من الجهات الأخرى ٠ ويعزى بعض هذا الى أولئك الأمراء الطيبيين النبلاء الذين ، بعد أن فرغوا من

توحيد مصر ونشر السلام فى ربوعها ، عادوا بكل مايملكون من قوة أتاحتها لهم السيادةعلىدولة موحدة،واستأنفوا مهمة الحراسة فى الجنوب ، وهكذا استطاعوا أن يردوا برابرة الجنوب القهقرى بشكل حاسم وان كان بطيئا . وما وافت سنة ١٨٥٠ ق.م حتى بلغوا الشلال الثانى . ولقد عطل غزو الهكسوس هذا التقدم ولكنه لم يقفه ، واستغرقت الدولة الحديثة سكان هذه الأقاليم ثقافيا حتى الشلال الرابع . ولما سقطت الدولة الحديثة أصبح حصن نباطى ، عند الشلال الرابع ، حاضرة دولة متفرعة كاد يتم على يديها (بين عامى ٧٥٥ و ٦٥٥ ق.م.) توحيد مصر مرة أخرى من الجنوب كما سبق توحيدها مرتين من قبـــل ، واحتفظت الدولة المتفرعة ، فى اقليم يعادل جزء منه اثيوبيا الحديثة ، باستقلالها لمدى تسعمائة سنة أخرى .

أودت غزوة الهكسوس لمصر من الشمال الشرقى بالدولة العامة ، وافتتحت عهدا من التفكك هو أطول العهود المعروفة فى أية حضارة فى التاريخ . وفى هذا الحادث الوحيد لاتنطبق على مصير مصر المبادىء العامة التى خلص اليها توينبى من الأمثلة الأخرى ، ولكنه فىعرفهالشذوذ الذى يؤيد القاعدة . ففى أثناء النصف الأول من الألف الثانى ق.م قامت حركة انتشار الآريين سابقة لحركة انتشار الترك وتفرقهم بثلاثة آلاف عام. انتشر هؤلاء الآريونمن صحارى أوراسيا العشبية ، مبتدئين من النقطة التى انتشرت منها جموع الترك بعد ذلك . وتاريخ الدولة التى أسسوها شبيه بتاريخ الخلافة الأموية . عبر بعضهم الهندكوش الىالهند ، واخترق آخرون ايران والعراق الى سوريا ومنها اجتاحوا مصر حوالى مطلع القرن السابع عشر ق.م . وكما أن الخلافة الأموية بدأت كـ « دولة متفرعة » للدولة الرومانية فى سوريا ، كذلك أقام الهكسوس (وهو الاسم الذى أطلقــه المصريون على هؤلاء الغزاة المتبربرين) « دولة متفرعة » لدولة سومر وأكاد فى سوريا ، وحكموا أصقاعا شملت مصر

والشام وربما الجزيرة أيضا ، وهى دولة لعلها بلغت فى اتساع الرقعة ما بلغته دولة صلاح الدين ، وكانت على التحقيق مثلها قصيرة العمر . وكما أن الخلافة الأموية فقدت توازنها وأثقلها فتحها أملاك الدولة الساسانية السابقة ، كذلك أثقل الهكسوس فتحهم الأملاك السابقة للدولة الوسطى فى مصر ، واضطرت كلتا الدولتين بعد أن اكتظت بالطعام أن تخلى مكانها لغيرها ، فخلف العباسيون الأمويين ، وخلفت الدولة الحديثة الهكسوس .

ويتساءل توينبى ، كيف استطاعت حضارة مصر التى كان يبدو أنها جرت شوطها وأنهته ، أن تبعث نفسها حية وتطرد الغزاة البرابرة ؟ وهو يرد على ذلك بأن بقاء الفتح البربرى يكون أيسر اذا لم يكن البرابرة قد اصطبغوا قبل الفتح بصبغة ثقافة أجنبية . وقد أيقظ الهكسوس فى المصريين تعصبا للقومية والدين يكفى لطردهم . أما الليبيون ، غزاة القرن العاشر ق.م ، الذين كانوا من حيث الثقافة صحيفة بيضاء ، فقد استطاعوا أن يتشربوا ثقافة أهل البلد الذى فتحوه . وقد أحفظ المصريين على الهكسوس تلك الصبغة السومرية البغيضة التى كانوا مصطبغين بها . ثم انهم لم يعتنقوا ديانة رع ولا غيره من آلهة الأقلية الحاكمة فى مصر ، ولم يعتنقوا ديانة أوزيريس ، وهى الديانة العليا للعامة من المصريين ، وانما اتبعوا « ست » اله الشر فى أسطورة أوزيريس . وفى ظن توينبى أن شناعة الدور الذى قام به اله الشر هذا هى التى حببته الى الغزاة . ولم يقم بين صفوف الهكسوس رجال من طراز مكيافلى يعلمونهم طواعية الدين لمطالب السياسة والحكم ، فانتهى الأمر بأن طرد عباد أوزيريس عباد ست ، على حين أن الليبيين الذين قبلوا الايمان بأوزيريس قبلوا منه القدر الذى يتيح لهم البقاء . وفى تاريخ مصر المتأخر نجد العرب أكثر حظا عند فتحهم شمال أفريقيا من الهكسوس،

فهم لم يتخلوا عن الاسلام ولكنهم نشروه بين رعاياهم من أهل البلاد ، ولكن مما لاشك فيه أن روح جماهير الشعب المصرى كانت اذ ذاك قد تحطمت .

وحوالى سنة ١٥٨٠ ق.م. طرد الأمير الطيبى مؤسس الدولة الحديثة الهكسوس . تلك هى الحالة الوحيدة التى سجلها التاريخ عن « دولة عامة » ردت من جديد الى الوجود . ويعد أحمس أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، من حيث أهميته ، صورة طبق الأصل من منتوحوتب الرابع فرعون الأسرة الحادية عشرة والمؤسس الحقيقى للدولة العامة فى مصر . وقد تمتعت مصر بعصر ذهبى بعد حكم كل من هذين الملكين . ولكن ماتبقى فى الدولة الحديثة من رمق كان لابد من بذله لاحباط « انتصار البربرية » للمرة الثانية ، فقد كان يخشى على العالم المصرى خلال القرنين الثالث عشر والثانى عشر ق.م. أن يغرقه طوفان مرتد من أفواج الرحل البحريين التالين للمنويين ، ولكن الغزاة الليبيين الذين اغتصبوا بعد ذلك تراث الدولة الحديثة المهمل ، قلبوا الأوضاع المألوفة. استطاعت مصر أن تصد الغزوات باطراد مدى قرنين من الزمان ، وكان الأمراء الطيبيون الذين أسسوا الدولة الحديثة قد أخذوا عن أعدائهم السابقين المقهورين — وهم الهكسوس الرحل — سلاحا من أسلحة الحرب هو العجلة الحربية والحصان ، فدلوا بذلك على أن بهم قابلية للتأثر بالأفكار هى احدى العوامل المساعدة على النجاح فى بناء الدول . ومن المسلم به أن الدول التى أقامها الفاتحون من البدو الرحل لم تعمر طويلا ، ولا بد أن ابن خلدون المؤرخ العربى العظيم (١٣٣٢—١٤٠٦ م.) كان يفكر فى دول البدو الرحل حين قدر ثلاثة أجيال ، أو مائة وعشرين سنة ، عمرا للدولة . ذلك أن الوهن يتطرق اليهم بعد أن يبدأوا فى عنفوان قوتهم ، على حين يفيق رعاياهم المقيمون من وقع اللطمة التى دوختهم ، ويستردون عادة روحهم المعنوية فى الوقت الذى يفقد فيه

سادتهم هذه الروح • ثم تقوم « قطعان البشر » بطرد ملوكهم الرعاة أو باستغراقهم • فلو كان الليبيون أفلحوا فى فتح مصر بحد السيف لما ظفروا من هذا الفتح بأكثر من حكم مصر قرنا من الزمان كما حكمها الهكسوس من قبل ، ولكنهم بعد أن فشلوا فى دخول مصر عن طريق الفتح نالوا مأربهم فى النهاية عن طريق التسرب • أتوها جندا مأجورين ، وكانت مكافأتهم عن هذا الاتضاع فى النهاية احراز الجائزة التى حاولوا غصبها عنوة من قبل • ومعلوماتنا عن هذه الغزوة أقل مما نعلم عن جميع الغزوات التى أتت على مصر • ومن الجائز أن الغزاة الليبيين كانوا على حلف مع غزاة آخرين من بحر الأرخبيل ، ومن الجائز أنهم وقعوا تحت ضغط هؤلاء الغزاة • وكيفما كان الأمر ، فان السيادة على المجتمع المصرى من الدلتا الى الشلال الأول ، من القرن الحادى عشر فصاعدا ، كانت موزعة بين الدخلاء من أقيال الحـــرب الليبيين ، المعسكرين فى مدنهم الحربية ، وبين الكهنة المصريين الأقوياء فى دويلاتهم الدينية •

فرضت الدولة القديمة على الفلاحين المصريين عبئا آخر كان عليهم أن يرزحوا تحته ، بالاضافة الى كابوس « الملوكية الألهية » وهو عبء « الصفوة المثقفة » • ذلك أن الملوكية المؤلهة تستلزم هيئة مثقفة من الموظفين ، والا عجزت عن الاحتفاظ بمكانها الرفيع الذى اتخذته كمكان الصنم يقوم على قاعدة بمعزل عن غيره • وكان توحيد وادى النيل كله من الفنتين الى ساحل البحر ، والاستقلال المنظم لموارد المملكة المتحدة ، جهدا جبارا من الجهود الاجتماعية المنسقة اقتضى ادارة محكمة ، تقوم عليها طائفة من الموظفين المدنيين المحترفين ، يحسنون القراءة والكتابة ، ويعملون بوصفهم القوة التى من وراء العرش • وقد استغلوا سلطتهم « ليحزموا أحمالا ثقيلة عسرة الحمل ويضعوها على أكتاف الناس ، وهم لا يريدون أن يحركوها بأصبعهم » • وكان الهدف الذى يرمى اليه الآباء جميعا أن يجعلوا من أبنائهم موظفين ليجنبوهم مشقة العمل

اليدوى كما هى الحال فى الصين • واختلط هؤلاء الموظفون بالكهنة ، حتى انتهى الأمر بكبير كهنه آمون الى تتويج نفسه بتاج الدولة فعلا فى عام ١٠٧٥ ق•م• وحين غمر طوفان العسكر الليبيين البلاد ، كان زمام الأمر فى مصر لا يزال بيد هؤلاء الكهنة والصفوة من المثقفين •

وثمة نظير وثيق الشبه بالنظام الذى أقامه « حريحور » رئيس كهنة أمون رع فى طيبة فى القرن الحادى عشر ق•م• ، تجده فى فترات من تاريخ بابوية روما بفضل تأثير هلدبراند • فكلا البلدين ، روما وطيبة ، كان مقدسا ، وفى كليهما انتهى الأمر بأن يشغل مركز امبراطور الدولة العامة الولى القائم على اله المدينة ، الذى أصبح زعيما عالميا للشعوب التى كان يسيطر عليها سلفه سيطرة سياسية • وقد أصاب كلاهما قسطا من النجح بفضل كهنوت بلغ الغاية فى التنظيم والتدريب على الطاعة وسعة الانتشار ، ولكن هلدبراند لم يقترف الخطأ الذى اقترفه حريحور ، ذلك الذى لم يقتصر فشله بعد اتخاذه الملك على عجزه عن منع انهيار المجتمع المصرى ، بل انه فقد سلطته وشيكا ، حتى بلغ الأمر بخلفائه أنهم لم يدعوا هذه السلطة لأنفسهم ، واضطروا فى الواقع الى التخلى عن وظيفة كبير الكهنة ، وعن حكم اقليم طيبة للقادة الليبيين •

وتدل هذه الخيبة على خطر الخلط بين السلطتين السياسية والروحية ، لأنها أتت بعد حبوط أعظم محاولة فى تاريخ مصر للثورة الدينية بزمن قصير •ويفوق اعجاب توينبي بأمينوفس الرابع (اخناتون) اعجابه بأية شخصية أخرى ، وهو المؤرخ الوحيد الذى يضعه مع الاسكندر الأكبر فى مرتبة أبناء الملوك ، الذين قال عنهم افلاطون انهم فلاسفة بالفطرة ، عاشوا ليكونوا ملوكا ، وحاولوا وهم على العرش أن ينقلوا الى ميدان العمل السياسى فلسفة من صنعهم وحدهم • وكان كلاهما يدين بأخوة البشر التى أكدها الاسكندر فى قوله المأثور « ان الله هو

الأب المشترك لجميع الناس ، ولكن آثرهم عنـده خيارهم » • حاول اخناتون أن يستبدل بالعقيدة الرسمية فى مصر — عقيدة الآلهة المتعددين يتزعمهم آمون رع — عبادة اله روحى واحد أحد ، أعلن لاهوته للناس فى قرص الشمس • وقد عين « مجمع الآلهة » ، الذى نظمه تحتمس الثالث بعد قرون طويلة من التطور ، هبوط فرعون من مصاف الآلهة الى مركز متوسط هو ابن حاكم الكون ، فصار انسانا وان ظل معبودا فى الوقت نفسه • وكانت محاولة أخناتون أن يواصل هذا الهبوط محاولة صادقة أمينة مخلصة ، وكان حريا بهذا الايمان الدينى العميق ، وهـذا الادراك الدقيق للوحدة أن يلقيا ترحيبا ، ولكنهما باءا بفشـل ذريع ، لأن « حركات التجديد العظمى لاتأتى البتة من فوق ، ولكن من أسفل » كما يقول يونج •

ويستشهد توينبى بهذا الفشل لتأييد ما يزعم من أن عدم مرونة النظم سبب من أسباب انهيار الحضارات • وعجز هذا النبى الملك ذو السيادة المطلقة عن فرض آرائه فى الوحدانية بأزاء الكراهية المنظمة التى كان يشعر بها كهنة المذهب القديم نحو هذه البدعة • على أننـا نستطيع أن نلحظ فى ميادين الدين واللغة والفنون والأخلاق الدلائل على أن التصدع كان قد بدأ يتطرق الى جسم المجتمع ، وذلك بالافصاح عن هذا الأحساس الباطن بالبلبلة والاضطراب ، وهو احساس يعرو النفوس فى عصور التفكك الاجتماعى • فاله طيبة « أمون » الاله المحلى الخامل الذكر ، الذى كان فى الأصل صنوا لاله محلى آخر مجاور له هو « مين » اله مدينة قفط ، انتهى به الأمر الى الاتحاد مع رع الاله الشمس • ولم يكن هذا فى لغة الدين سوى انعكاس لحقيقة سياسية ، هى أن أميرا طيبيا من بناة الدول الذين نشأوا فى الصعيد قام بتـأسيس الدولة العـامة فى مصر ، لا فى المرة الأولى فحسب ، بل فى المرة الثانية أيضا عند احياء الدولة من جديد • وبلغ أمون قصارى مجده بوصفه اله الشمس حين

كانت تعلم فى فترة الاضطرابات وحدانية تتصور الها واحدا للجميع يكشف عن نفسه تحت أسماء محلية متعددة . أما عبادة أوزيريس فقد حاولت أن تضطلع بما استطاعت من العبادات التى سبقتها ، وهى ظاهرة مألوفة فى جميع الأديان التبشيرية ، ولكن الذى حدث هو أن الكهنة المصريين هم الذين اضطلعوا بهذه العبـادة ، وبذلك وضعوا أنفسهم « على رأس حركة شعبية ناهضة وجدوا أنفسهم عاجزين عن قمعها أو حتى دفعها ، حركة كان من الجائز أن تقضى على طبقة الكهنة الأقدمين » ، وبدل أن يقضى على الكهنة بلغوا أوج سلطان لم يبلغوه البتة من قبل . أما من الناحية السياسية فيرجع هذا النجاح الى ازدياد الشعور بالأثم فى « فترة الاضطرابات » . فقد طغت على الناس هذه الاضطرابات طغيانا شعروا فيه بأنفسهم ألعوبة فى قبضة المقادير ، وشعروا بأن نشاطهم وأعمالهم « تدور سريعا كدوران عجلة الخزاف » .

« وقال قائل منهم : أكان عبثا أن جبلت من طين
وشكلت فى هذه الصورة ، أيكون مصيرى أن أحطم
أو أسحق فأعود ترابا من جديد ؟ » [1].

واحساس الناس بأنهم مسوقون الى غير غاية ، وشعورهم بفقدان القـدرة على النمو ، خطب أليم يصيبهم فى زمن التفكك الاجتماعى . ولكن هذا المخدر كان يقاوم مفعوله ازدياد فى الشعور بالخطيئة ينبه الفرد الى أن بعض هذا الفشل فى صميم نفسه ، وبذلك يحفزه ويستحثه . وتستطيع أن تلحظ يقظة الشعور بالخطيئة فى تطور الفكرة المصرية عن الحياة الآخرة خلال « فترة الاضطرابات » ، ففى أيام الدولة القديمة كان الاعتقاد أن السعادة فى الآخرة تنال اذا تحققت اشتراطات فى الشعائر والطقوس تقتضى كلفة مادية ، ولكنه على عهد الدولة الوسطى تطور فأصبحت السعادة موقوفة على شرط ، هو الاستقامة والبر فى هذه الحياة

(١) من رباعيات الخيام .

الدنيـا • تخيل المصريون محاكمة الآلهة للناس بعد أن اعتقـدوا أن سلوكهم على الأرض سيكون عرضة للحساب الألهى وما يستتبعه من ثواب أو عقاب •

ويجب التذكير هنا بأن فى جميع الأديان عنصرا دخيلا فى غاية الأهمية ، فقدكان لعبادة أوزيريس أصل أجنبى هو عبادة «تموز» فى سومر، والعنصر الدخيل فى عبادة الأغارقة لأيزيس عنصر مصرى • والأله الشمس يموت من أجل أقـوام مختلفين تحت أسماء مختلفـة ، فهو عنـد المينويين « زاجروس » ، وعند السومريين « تموز » ، وعند الحثيين « أتيس » ، وعند الاسكندناويين « بولدر » ، وعند السوريين « أدونيس » ، وعند المصريين « أوزيريس » ، وعند الشيعة الحسين ، وعند المسيحيين المسيح • وهو اله متعدد المظاهر واحـد المحبة • ولكن هناك حالة مشهورة اصطنع فيها دين جديد عمدا لخدمة المآرب السياسية ونعنى بهاخلق بطليموس سوتر لعبادة سرابيس ، ليعبر القنطرة بين العالمين المصرى والاغريقى • واستطاعت لجنة من كاهنين ، أحدهما مصرى والآخر اغريقى ، أن تجمع من خصائص الالهين أوسر « أو أوزيريس » وآبى « أو آبيس » ، الها جديدا هو الاله سرابيس • ونحت للاله الجديد تمثال ، ورتل له التسبيح شعرا ، وأخذ سرابيس مكانه فى مجمع الآلهة الى جوار زفس وديونيسيوس وآسكلبيوس • ولقيت العبـادة الجـديدة نجاحا بين الأغارقة ، ولكن الكهنة المصريين الذين كانوا مسيطرين على هذا الميدان مدى ١٢٠٠ عام رفضوا هذه البدعة فباءت بفشل سياسى ذريع •

أما شعور البلبلة والاضطراب فى محيط اللغة فقد تجلى فى التحول من لغة محلية محدودة الى بلبلة شاملة فى الألسن • ففى أثناء عهد انحلال الحضارة المصرية الطويل شقت اللغة المصرية الحديثة فى القرن السادس عشر ق•م لنفسها طريقا فى قشرة اللغة المصرية الفصحى ، التى بليت منذ زمن بعيد ، ووطدت أقدامها فترة قصيرة بوصفها « اللغة المخلطة » للدولة

الحديثة المتداعية ، وظلت تستعمل لغة للأدب فى المجتمع المصرى فترة أطول من ذلك بكثير ، ولو أن الدولة الحديثة التى قامت على أنقاض دولة الهكسوس قد ارتضت ، فى الواقع ، أن تستعمل لغة الهكسوس الأكادية فى المخاطبات الدولية ، حتى ماوجه منها للأمراء التابعين لمصر . ولعل مصر هى الوحيدة بين الأمم التى بذلت جهدا جبارا مرتين لتصون لغة وتحافظ عليها حتى تستعصى على الافهام .وفى فترة الاضطرابات كانت الشقة بين لغة الحديث واللغة المدرسية من البعد بحيث استحال على الأشخاص العاديين أن يفهموا هـذه الأخيرة ، وقـد قضى اخناتون (أمنوفيس) على هذه الظاهرة السخيفة . ولكن ما أن انقضت خمسة قرون أخر حتى أصبحت اللغة الشعبية السابقة هى الأخرى لغة ميتة ، شأنها شأن اللغة القبطية اليوم ، واضطر الطلبة الى تعلمها فى مدارسهم . ولهذه اللغات المدرسـية أهميتها للمؤرخ . حق أن الشعر الحماسى يكتب عادة بلغة الشعب ، ولكن يجب أن نذكر دائما أن الشاعر لم يكن مؤرخا . والشعر الحماسى يعيش ، لا لأن فيه عنصرا تاريخيا ، بل لما فيه من عناصر غير تاريخية ، عناصر الخرافة والدين والخيال ... « فأن مجرى الحوادث الحقيقى أمر لايكترث له الشاعر ولا المستمعون اليـه » . وأنت تقرأ سفر يشوع فلا تعرف منه أن كثيرا من مدن كنعان كانت فى قبضـة الحاميات المصرية ، وأن أدب بنى اسرائيل الحماسى يمسك عن أى ذكر للامبراطورية المصرية ، كما أمسكت الملاحم التيوتونية عن ذكر الامبراطورية الرومانية .

وفى غضون هذه القرون الطويلة بقى المجتمع المصرى متشبثا بحيويته وان كانت هذه الحيوية ضعيفة . فطرد من مصر الغزاة المتتابعون من أشوريين وفرس واحدا بعد الآخر كما طرد الهكسوس من قبل بفضل هذه الصحوة السحرية التى صحاها هذا الجسد الصريع الذى خاله الدخلاء المغيرون جثة هامدة . وتعزى هذه الصحوات الأخيرة التى

مدت فى أجل حضارة تحجرت الى ماحدث من اتحاد جديد بين عامة الشعب فى مصر وبين الأقلية السائدة ، فى وجه المحرومين المغيرين (وهم الهكسوس فى المرة الأولى) • فأما ثمرة هذا الجهد — من وجهة نظر العالم — فهى عقيمة لأنه انتهى الى ركود • وكان من المحتمل أن يلقى البطالمة نفس المصير لولا أن الدولة الرومانية شغلت مكانهم وقبضت على مصر بيد من حديد حتى قام مذيب الحضارة الأغريقية القوى بمفعوله المحلل • منذ ذلك الحين فقط فقد المجتمع المصرى طابعه الذاتى باعتناق الشعب المصرى بجملته ، ما بين القرنين الثالث والخامس الميلاديين ، الديانة التوفيقية الأغريقية السورية ، أعنى المسيحية ، التى ظلت تفقد فى مصر ما اختلط بها من عنصر اغريقى شيئا فشيئا ، أولا بتحول المصريين عن المسيحية الأولى الى مذهب اليعاقبة « القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح » ، ثم باعتناقهم الاسلام أخيرا ، ماعدا أقلية من القبط تخلفت منهم وقد بلغت مصر آخر هذه المراحل بين عامى ٩٧٥و١٢٧٥ من الميلاد • ومن ثم انقضت ٣٠٠٠ سنة بين أول تصدع للحضارة المصرية وبين اندماجها نهائيا فى جسم المجتمع السورى • أما فى ميدان الفن فيمكننا أن نؤرخ العصور الفنية فى مصر ابتداء من العصر السابق للأسر ، ولم يك بعد مصريا صميما ، الى العصر القبطى الذى تجرد من كل الخصائص التى طبعت الفن المصرى بطابعه المميز • كانت عبادة الملك المؤله ، بوصفها نظاما وقانونا لا شذوذا وتنافرا داخليا ، هى السبب فى الانهيار الأول الذى أصاب الحضارة المصرية ، ولم يكن التخلى عن أسلوب الفن التقليدى ، واختفاء الكتابة الهيروغليفية والديموتيفية (بين القرنين الثالث والخامس) بعد تداولهما ثلاثة آلاف عام وحلول الكتابة القبطية التى تستعمل حروف اليونانية محلهما ، السبب فى الانهيار النهائى الذى حل بالحضارة المصرية ، وانما كان ذلك دليلا على أن هذا الانهيار قد مر بعهد طويل من التضعضع والاضمحلال الذى تفاقم حتى انتهى بالانحلال •

ويعد المجتمع المصرى أفضل مثل سجله التاريخ من بين الأحد عشر مجتمعا المتحجرة التى تناولها توينبى بالدرس ، وهو يفضل حتى المجتمع الصينى . فقد عاش ضعف الأجل الذى كان متوقعا له أن يعيشه ، ولكن كان ثمن هذا البقاء فى النصف الأخير من عمره أن أصبح «ميتا حيا» أو « شعبا بلا تاريخ » . ويجدر بنا أن ننبه الى هذا التفسير ، من بين التفسيرات التى يقدمها توينبى تعليلا لهذا المجهود الجبار ، وهو أن الحضارة المصرية كانت مركزة محدودة أكثر مما كانت واسعة منتشرة . ويتضح هذا فى فشل مصر فى احتلال داخل سوريا بل فى الاحتفاظ بالمنطقة الساحلية التى احتلتها ألفى عام ، أمام هجمات حضارة مينوية نستمد أفضل معلوماتنا عن وجودها ذاته من نقوش المقابر المصرية . والفتوح المتوالية على طول هذا الساحل ، والتى قام بها الغزاة من ملوك الدولة الحديثة ، (تحتمس الأول وتحتمس الثالث ورمسيس الثانى) برهان من تاريخ مصر على أنه ، حين تقبض الأقليات السائدة على زمام الأمور ، يخشى دائما أن يقوم أحد هذه الأنواع الثلاثة المنحطة المتلاف ، والجلاد ، والغازى . ففى شخص هؤلاء الفراعنة الثلاثة نكبت مصر بالغزاة المخفقين . فالواقع أن الحضارة المصرية لم تنتشر بنجاح الا على طول وادى النيل ، ويخلص توينبى من دراسته للحضارات الأخرى الى نتيجة ، هى أن التوسع الجغرافى يكاد يكون مرضا اجتماعيا من ذلك النوع الذى يجعل النبات كله ساقا أو بذورا ، مرض الجبار جالوت الذى استطال وتضخم وانتهى به الأمر الى الهزيمة على يد داود ، أو هو حال السفن الاسبانية الثقيلة التى دحرتها المراكب الانجليزية الخفيفة . ولو كان هناك تناسب بين التوسع الجغرافى والنمو لكان التناسب عكسيا ، فالتوسع ليس ظاهرة نمو اجتماعى وانما هو عرض من أعراض التفكك الاجتماعى ، فان أعالى النيل لم تدمج فى الحضارة المصرية الا بعد أن

تصدعت تلك الحضارة واجتازت « فترة الاضطرابات » ودخلت طور الدولة العامة • وعندما تصدعت هذه الدولة العامة ثم أعيدت فى شكل الدولة الحديثة ضمت النوبة الى مصر • ويشبه هذا أن الأهرام ، وكذلك تماثيل الرمامسة الضخمة فى نهاية الدولة الحديثة ، كلاهما استفحال ومبالغة أنذرت بالانحلال •

ولكن هذه الآلاف الثلاثة من الركود الذى تركز فى أقليم محدود قدمت للعالم الفكرة المتمركزة عن « الدولة المصرية » ، وهى الفكرة التى تظهر مزايا الفكرة الاغريقية عن الدولة اذا قورنت بها ، « دولة المدينة » بما تتمتع به من حريات • وقد اكتسب هذا التقليد المحلى الذى درجت عليه مصر مدة ٢٥٠٠ عام منذ عهد بناة الأهرام ، وأعنى به « الدولة المستعبدة » ، من القوة الدافعة ما حمل الفاتحين من الأغريق على التسليم به سريعا • ومن ثم نرى البطالمة وورثتهم من أباطرة الرومان يواصلون الأخذ به وان كان ظلمهم للناس لم يبلغ من الفظاعة ما بلغه فى أملاك قرطاجنة الافريقية أو بين فرق العبيد فى صقلية • والحاصل أن العالم كله تأثر بهذا الصراع بين الفكرة الأغريقية والفكرة المصرية عن الحكومة ، ذلك أننا يجب أن نذكر أن النضال فى أقليم الدلتا بين الحضارتين الأغريقية والمصرية استمر قرونا ، بل انه مستمر بدرجات متفاوتة الى اليوم • ويشبه توينبى العلاقة بين الجنسين بالعلاقة بين الهولنديين ومضيفيهم اليابانيين فى الفترة بين عامى ١٦٤١ و١٨٥٠ م • فقد قبل الأغريق قديما ، كما قبل الهدلنديون حديثا ، ما فرض عليهم من قيود بوصفهم طبقة منبوذة فى سبيل ما تدره عليهم التجارة من أرباح • ففى القرن الخامس ق•م • كان المصريون يضحون كل سنة بحيوان قطع رأسه وسلخ جلده ، وكانت تتلى على الرأس لعنة مروعة هى « ان كان ثمة شر محدق بنا نحن الذين نقدم هذا القربان أو بكل أرض مصر ، فليدخل هذا الرأس » ثم يقذف الرأس حينئذ

فى النهر ، الا اذا كان على مقربة من المكان تاجر اغريقى لا يعبأ بأن يستهدف للأخطار التى يخشاها جيرانه طمعا فى ربح خسيس •

على أن أغريق مصر الذين أنشأوا بهامدينة أغريقية الصبغة ، هى الاسكندرية ، والذين عاشوا أقلية شاذة فى أرض مصر ، أولئك الذين بقوا بمصر بعد أن غزاها الفرس وبعد أن سيطر على العالم الأغريقى رجل مقدونى ، هبوا غاضبين فى وجه الرومان ، ورثة الدولة العامة الأغريقية ، حين أصبحت روما حاضرة العالم بدل الاسكندرية التى كانت تحوى مقبرة الاسكندر نفسه ومتحف بطليموس ومكتبته • ولم يسبق لهؤلاء الاغريق أن زجوا بأنفسهم البتة فى المنازعات التى كانت تنشب فى وطنهم الأول بشبه الجزيرة ، أما الآن ، وقد امتشقوا الحسام فجأة ورأوا استحالة الانتقام من الرومان كما يشتهون ، فقد انقلبوا — وهم أقلية فى أرض غريبة — ليسفكوا دماء الأقلية اليهودية التى تعيش بين ظهرانيهم • وهكذا استحال هؤلاء الأغريق ، الذين عاشوا مسالمين قرونا عديدة ، شهداء ومضطهدين فى الوقت نفسه بعد أن انتزع المجد من يدهم •

والآن وصلنا فى تاريخ مصر الى عهد بلغ فيه الانحلال حدا لم تعد عنده الحضارة أمرا زمامه بيد مصر • وكان غزو دولة الفرس (وهى الدولة العامة السورية الأولى) لمصر مجرد توسيع لرفعة الدولة لم يقهر روح المصريين • ثم أتى على مصر عهـد كان يبدو فيه أن اصطباغها بالصبغة الأغريقية أكثر احتمالا • على أن للحضارة السورية الفضل فى مآثر جليلة ثلاث :

١ — فهى التى اخترعت أبجدية للكتابة •

٢ — وهى التى كشفت المحيط الأطلسى •

٣ — وهى التى انتهت الى فكرة خاصة عن الله تشترك فيها اليهودية والزرادشتية والمسيحية والاسلام ولكنها غريبة عن التفكير والشعور الدينى سواء فى مصر أو سومر أو الهند أو اليونان • ولم تحرز الحضارة

السورية انتصارها النهائى فى مصر الا حين بلغت الحضارتان المصرية والأغريقية مرحلة النزع الأخير ، فدانت مصر أولا لمذهب اليعاقبة ، ثم دخلت فى الاسلام جملة ، ولم يتم هذا الا لأن التسليم كان فى الواقع تسليما للحضارة العربية •

ويزعم توينبى أنه فى الفترة القصيرة التى عمر فيها المجتمع العربى كانت مصر هى البلد الذى اشتد فيه نبض هذا المجتمع ، الذى كان ضعيفا خافتا فى غيرها من البلاد • ففى مصر بعث المماليك شبح خلافة بغداد العباسية من قبرها فى القرن الثالث عشر ، كما بعث شبح الدولة الرومانية بالقسطنطينية « ليو » السورى فى القرن الثامن • وكان المماليك هم المدافعين عن الاسلام فى كفاحه للوثنية ، وفى مصر ظل الأدب العربى حيا ، وظلت العمارة العربية حية ، مدى قرنين ونصف من الزمان ، بين بدء الخلافة القاهرية والفتح العثمانى الذى تم على يد السلطان سليم • وقد قدمت مصر لهذا المجتمع العربى حافزا هو التربة الجديدة ، لأنه لم يكن لمصر نصيب فى خلق هذه الحضارة أصلا • وكانت نتيجة الاحتلال العثمانى للقاهرة فى عام ١٥١٧ م • اخضاع هذا الشطر من دولة الاسلام اخضاعا دائما وادماجه فى مجتمع شقيق ، وبذلت محاولة جديدة لتكوين دولة عالمية لغتها العربية • وكان هذا الاحتلال فى تاريخ الاسلام شبيها باستيلاء الصليبيين على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ ميلادية ، ولكن هناك اختلافا جوهريا فى نتائج الاحتلالين ، فبينا كانت نتيجة الحملة العثمانية ضم المجتمع الشقيق قرونا أربعة ، كانت الحملة الصليبية عقيمة كما كانت مخزية • وقد تمتع العالم المسيحى الأرثوذكسى بألف سنة من الحياة المستقلة على حين لم يتمتع المجتمع العربى بأكثر من قرنين ونصف (من سنة ١٢٧٥ الى سنة ١٥٢٥ م•) قبل أن يدمج كلاهما عنوة فى المجتمع الايرانى •

طغى العثمانيون على المجتمع العربى دون أن يتمثلوه ، وظلت الأحوال

فى مصر دون تغير جوهرى ، وكل ما حدث أن قامت الى جوار المماليك الذين جلبهم الأيوبيون طبقة عسكرية جديدة هم الانكشارية • وهناك أمثلة أخرى عديدة من هذه الفكرة التى فطرت عليها الطبيعة البدوية وان كانت غريبة على طبيعتنا ، وهى اتخاذ الجند والحكام من بين الرقيق • وأول من اقتنى المماليك هو صلاح الدين وورثته الأيوبيون ، وقد قضى على الدولة الأيوبية عام ١٢٥٠ م أولئك الذين كانوا من قبـل عبيدا لها • وهزم المماليك الفرنسيين الذين يقودهم القديس لويس مرتين وعلى عرش الخلافة العباسية خليفة صورى أقاموه ستارا ، ثم ثبتوا للمغول على خط الفرات من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٥١٦/١٧ حين التقوا بقريع لهم ، هم أسرة أصلها من الرقيق أيضا ، ونعنى بهم آل عثمان ، وشعب آخر من شعوب البـدو الرحل نزحوا تحت ضغط الظروف المناخية • على أن نظام الحكم العثمانى فى مصر سمح لجيش المماليك بالبقاء محتفظين بنظامهم القديم ومواصلين تجنيد الرقيق الجديد من أسواق أوراسيا والقوقاز • وما وافى القرن الثـامن عشر حتى أصبح الوالى العثمانى فى الواقع سجينا سياسيا للمماليك لا تزيد سلطته على سلطة الخليفة العباسى فى حضيضها • ولم يقض على هـذا الحكم العسكرى الأجنبى المنحط الذى فرضه على مصر قوم لم يتثقفوا ولم يتغير أسلوبهم فى القتال ، سوى الرجل المقدام مؤسس الأسرة العلوية الحاكمة فى مصر الآن ، وكان ذلك عام ١٨١١ • وانقرضت حفنة المماليك الباقين على قيد الحياة نهائيا فى مجاهل النيل الأعلى •

وفى عهد هذه الطبقة العسكرية الدخيلة ظل المواطنون من أهل مصر العربية يواصلون حياة العزلة والكفاية الذاتية ، يقوم الفلاحون منهم والعلماء والتجار والصناع المنتمون لنقابات المدن كل بدوره المستقل ، ويعرف كل وظيفته فى حياة المجتمع المشتركة • وقد ظلت العلاقة بين العرب والعثمانيين فى صميمها علاقة الغرباء ، واذا كان قد حدث تبادل

ثقـافى فان العثمانيين الفاتحين هم الذين خضعوا فى هذا المضمار للعرب المغلوبين • أما اليوم فقد دان الفريقان — من عرب وترك — للقومية الغربية ، وهى روح غريبة عليهما جميعا •

وكل مايهدف اليه تفكير توينبي وحججه التىيسوقها فى أجزاء مؤلفه الستة ، هو اظهارتفاهة الفكرة الحديثة السائدة ، فكرة الدولة القومية • وهو لايتكهن بالحضارة الناجحة التى قد تتمخض عنها المظالم التى نشكو منها اليوم، وتحليله للحضارات هو فىالواقع فحص للنمو الذىينتهى بالتغير والفناء • ولعل قربنا الشديد من حوادث هذا العصر يمنعنا من التمييز بينالخطير والتافه منها ، ولكناحيننذكر عظمة التاريخ المصرى ، وماسلخ من عمر طويل خطير ، يجدر بنا أن نذكر أيضا أنه ليس هنـاك من « كائنات حية » سوى الأفراد الذين ألفوا الحضارات الآنفة الذكر ، وأن هذه الحضارات نفسها ليست أكثر من الأرض المشاع بين ميادين النشاط الذى تقوم به جماعات من أفراد الناس • وجل اعتماد توينبي على العالم « الزورث هنتنجتون » (المؤرخ والبحاثة فى علم المنـاخ) دون غيره من علماء هذا العصر ، وهما متفقان على وضع تأثير العوامل الروحية فى الشؤون الانسانية فى المقام الأول ، أما العوامل المناخية وغيرها من العوامل المادية فتأتى فى المرتبة الثانية ، وذلك ايمان يضفى شعورا بالكرامة والثقة على أى باحث فى التاريخ يحاول تفهم المسرحية الحقيقية التى تمثل فصولها فى الذهن الانسانى ، والتى تقررها الاستجابات لتحدى الحياة ، لأنه ما من حضارة مقضى عليها بالفناء التام ما دامت القدرة على الاستجابة تتفاوت تفاوتا هائلا كما رأينا • ومن حق فلسفة توينبي فى التاريخ على الباحثين أن يعيروها ماهى جديرة به من عنـاية واهتمام ، لاسيما فى مصر التى تعـد حضـارتها القـديمة الأساس الذى يعتمد عليه كثير من حججه وآرائه •

جيمس جونستون أوكموتى

الترجمة بقلم فؤاد اندراوس

APPENDIX I.

Authorities cited, for Egyptian History, by Toynbee in his "STUDY OF HISTORY".

ABD-AR RAHMAN AL-JABARTI.: *'Aja'ib-al-Athar fi't-Tarajim wa'l-Ahbar*. French Translation. Paris: Leroux. 9 vols. 1888-96.

ANDERSON, A. : *Zoology of Egypt.* (Reptilia).

ARNOLD, SIR T.W. : *The Caliphate.* Oxford: Clarendon Press. 1924.

BELL, H. I. : *Juden und Griechen in Rômischen Alexandreia.* Leipzig: Hinrichs. 1927

BRAUN, MARTIN. : *Griechischer Roman und Hellenistische Geschichtschreibung.* Frankfurt am Main: Klostermann. 1934.

BRAUN, MARTIN. : *History and Romance in Graeco-Oriental Literature.* Oxford: Blackwell. 1938.

BREASTED, J.H. : *The Development of Religion and Thought in Ancient Egypt.* London: Hodder and Stoughton. 1912.

BUDGE, E. A. WALLIS. : *The Egyptian Sudan: Its History and Monuments.* London: Kegan Paul. 2 vols. 1907.

BURCKHARDT: *Travels in Nubia.*

The Cambridge Ancient History.

CHADWICK, H.M. & N.K. : *The Growth of Literature.* Cambridge University Press. 1936.

CHARLES-ROUX, F. : *Les Origines de l'Expédition d'Egypte.* Paris: Plon-Nourrit. 1910.

CHILDE, V.G.: *The Most Ancient East.* London: Kegan Paul. 1928.

CLAUDIAN. : *De Consulatu Stilichonis.*

CUMONT, F. : *Les Religions Orientales dans le Paganisme Romain.* Paris: Geuthner. 1929.

DAWSON, C. : *The Age of the Gods.* London: Sheed and Ward. 1933. ed.

ERMAN, A. : *Die Religion der Aegypter.* Berlin: De Gruyter. 1934.

ERMAN, A. : *The Literature of the Ancient Egyptians.* English Translation. London: Methuen. 1927.

GARSTIN, SIR Wm. : *Report upon the Basin of the Upper Nile.* London: H.M.S.O. 1904.

GAUTIER, E.F.: *Les Siècles Obscures du Maghreb*. Paris: Payot. 1927.

GHORBAL, S. : *The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali.* London: Routledge. 1928.

GIBB, H.A.R. & BOWEN, H.: *Islamic Society and the West*. Oxford University Press. 1939.

GLEICHEN, LORD EDWARD. : *The Anglo-Egyptian Sudan: A Compendium prepared by Officers of the Sudan Government.* London: H.M.S.O. 1905.

GOBINEAU, COUNT J.A. de.: *L'Inégalité des Races Humaines.* Paris: Firmin Didot. 4 vols. 1853-5.

GRIFFITH, G.T.: *The Mercenaries of the Hellenistic World.* Cambridge University Press. 1935.

HALL, H.R. : *The Ancient History of the Near-East.* London: Methuen. 1913.

HERODOTUS.

HUNTINGTON, ELLSWORTH: *Civilization and Climate*. New Haven: Yale University Press. 1924.

IBN IYAS, MUHAMMAD B. AHMED. (Trans. by W.H. SALMON *An Account of the Ottoman Conquest of Egypt in the year A.H* 922. (*A.D.* 1516) London: Royal Asiatic Society. 1921. Oriental Translation Fund, New Series, vol. XXV.

IBN KHALDUN.: *Muqaddamat*. Translated by Baron McG. de Slane. Paris: Imp. Impériale. 3 vols. 1863-8.

JOINVILLE, JEAN SIRE DE. : *La Vie Du Saint Roi Louis*: Paris: Cité des Livres. 1928 ed.,

JONES, A.H.M. : *The Cities of the Eastern Roman Provinces*. Oxford: Clarendon Press. 1937.

LANE-POOLE, S. : *A History of Egypt in the Middle Ages*. London: Methuen. 2nd. ed. 1914.

LYONS, W.G. : *The Physiography of the River Nile and its Basin.* Cairo: National Printing Dept. 1906.

MARÇAIS, G. : *Les Arabes en Berberie du XIe au XIVe siècle.* Paris: Leroux. 1913.

MEYER, E. : *Der Papyrus-fund von Elephantine*. Leipzig: Hinrichs. 2nd. ed. 1912.

MEYER, E. : *Geschichte des Altertums.* Stuttgart & Berlin: Cotta. 4th. ed. 1921.

MEYER, E. : *Gottesstaat, militarherrschaft und Standewesen in Aegypten.* Berichten Berl. Akad. 1928.

MEYER, E.: *Ursprung und Anfange des Christentums.* Stuttgart and Berlin: Cotta. 1921.

MILNE, J. G. : *Egyptian Nationalism under Greek and Roman Rule.* The Journal of Egyptian Archaeology. Vol. XIV, parts iii + IV, 1928.

MYRES, J.L. : *The Dawn of History.* London: Williams and Norgate. n.d.

NEWBERRY, P.E. : *Egypt as a Field of Anthropological Study.* London: Murray. 1924.

NILSSON, N.P. : *Minoan-Mycenaean Religion and its Survival in Greek Religion.* London: Milford. 1927.

PERRY, W.H. : *The Children of the Sun: A Study in the Early History of Civilization.* London: Methuen. 1923.

ROSTOWZEW, M. : *Studien zur Geschichte des Romischen Kolonates.* Leipzig and Berlin: Teubner. 1910.

ROSTOVTZEFF, M. : *A History of the Ancient World.* Oxford University Press. 2 vols. 1926.

SCHAEFER, H. : *Die Mysterien des Osiris in Abydos unter Sesostris* III *nach dem Denkstein des Oberschatzmeisters I-cher-Nofret.* Leipzig: Hinrichs. 1904.

SELIGMAN, C.G. & B.Z. : *Pagan Tribes of the Nilotic Sudan.* London: Routledge. 1932.

SMITH, G. ELLIOT. : *Human History.* London: Cape. 1930.

SMITH, G. ELLIOT. : *The Ancient Egyptians.* London & New York: Harper. 1923.

TARN, W.W. : *Alexander the Great and the Unity of Mankind.* London: Milford. 1933.

VAN HOONACKER, A. : *Une Communauté Judéo-Araméenne à Eléphatine, en Egypte, aux VIe et Ve siècles av. J.-C.* London: Milford. 1915.

VOLNEY, C.F.: *Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années* 1783, 1784 *et* 1785. Paris: Desenne & Volland. 2nd. ed. 1787.

WENDLAND, P.: *Die Hellenistich-Romische Kultur in ihern Beziehungen zu Judentum und Christentum.* Tubingen: Mohr. 2nd. + 3rd. cds. 1912.